ترجمة النص الأدبي من اللغة العربية واليها

د. ياسمينة بن برينيس

تحمل كلمة " الترجمة " في التراث العربي معان كثيرة... ولا بأس أن نستبعد تلك المعاني التي لا تهمنا في هذا المقال مثل الترجمة بمعناها المجازي (حينما تقول مثلا ترجمة المشاعر بمعنى التعبير عنها أو ترجمة فلان أي ذكر سيرته وأخلاقه أو ترجمة الرموز والإشارات...) فذاك موضوع آخر. ولا يشك أحد في أن الترجمة ظاهرة رافقت الإنسان منذ القدم... فهي وسيلة من وسائل الالتقاء الحضاري بين الشعوب، تعكس بشكل واضح ثقافة أمة معينة وتبرز آثارها وعبقرتها، إنها نشاط ثقافي إنساني لا غنى عنه، قناة رئيسية للتبادل بين الشعوب...

و الترجمة التي تهمنا هي تلك التي تنقل رسالة ما بين طرفين هما: المرسل والمرسل إليه، " حالة خاصة من التقارب اللغوي... كل شكل من أشكال " الوساطة عبر اللغوية " التي تسمح بتمرير المعلومات بين متكلمي لغات مختلفة... ".وهذه العملية ليست من الأمور السهلة التي يمكن لأي كان أن يقوم بها، بل هي بحاجة إلى متخصصين أكفاء قادرين على القيام بمهامهم على أحسن وجه، أي قادرين على تحقيق "الاتصال " و " التواصل " بين أقوام مختلفة.

الترجمة، إذن، نشاط إنساني أصيل، يساهم على الدوام في تفعيل اللغات والآداب والثقافات وتلاحقها. فهي تؤدي دورا كبيرا في خروج أدب معين من نطاق اللغة التي كتب بها إلى آداب قومية أخرى. وهذه الظاهرة عامة بين الآداب في عصور معينة، يتطلبها الأدب، الذي يريد أن يستثمر تجارب الآخرين، بسبب عوامل خاصة تدفعه إلى الاقتباس نشدانا لما هو جديد ومفيد يتغدى به ويهضمه. " ينشد الأدب المتأثر في اختياره دوافع نهضته وتقدمه، ليكمل المأثور من تراثه القومي ويغنيه. ويجب أن يكون الباعث الأول على هذا الاختيار هو الحرص على توفير عوامل النهوض للأدب القومي، لئلا يقف معزولا منطويا على نفسه متخلفا عن أداء رسالته..."

إن فوائد الترجمة على الأدب عديدة ولا يمكن لأي أحد أن ينكرها، ولعل أبرز مثال لذلك يتجسد في النهضة العربية الحديثة التي اهتمت بنقل المعارف الأوروبية المختلفة. فالعرب شأنهم شأن الشعوب الأخرى قد تفطنوا في بداية نهضتهم الحديثة إلى أهمية الترجمة في خدمة الثقافة العربية الإسلامية. فمن المعروف أن هذه النهضة قد تميزت بالانفتاح على الآداب العالمية عن طريق الترجمة إذ ظهر عدد كبير من المترجمين الذين عملوا على نقل الآداب الأجنبية إلى اللغة العربية مساهمين بشكل أو آخر في تطويع اللغة العربية وإغنائها بأساليب التعبير عن التجارب العصرية الحديثة وبثروة طائلة من المعاني الجديدة والمباني الحديثة.

صحيح إن مستوى هذه الترجمة، في القرن التاسع عشر كان ضعيفا . ولكنها ساهمت بشكل أو بآخر في تنمية اللغة العربية وتعريف أبنائها بأنواعها المختلفة. " وكانت القصة أول ما قابلوه أمامهم، كيف لا والنصف الثاني من القرن التاسع عشر يسجل نهضة عظيمة في الأدب العربي وبخاصة في الأدبين الفرنسي والإنجليزي، وهما أول ما غزا الشرق من ألوان الثقافة واستجابتها لرغبات القارئ العادي ".

أما في القرن العشرين، ولاسيما غداة الحرب العالمية الثانية فلقد اتسعت حركة الاتصال بين الوطن العربي والأمم الأخرى وأصبحت الاستجابة العربية للترجمة نابعة من الصميم، من أجل استكمال المعرفة وإثراء الإنتاج الفكري والأدبي بكل جديد وشيق. ومن الطبيعي أن يكون تأثير الترجمة في الثقافة العربية كبيرا جدا، يصعب حصره مطلقا، ولو أن القسم الأكبر من الأعمال المترجمة إلى العربية كان من

الكتابات الأدبية.

واللافت للنظر أن الرواية قد احتلت مركزا كبيرا في حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية لاسيما بعد أن أتاح الانفتاح الحضاري والثقافي، الذي تلا الحرب العالمية الثانية للمثقفين العرب فرص القراءات والاطلاع وتنويع مصادر ثقافتهم خصوصا لمن يجيد منهم لغة أو لغات أجنبية. ولقد قادتهم هذه المعرفة إلى التعرف على ألوان مختلفة من القصص والروايات هيأت لهم إمكانية تطوير هذا الفن واستخدام طرائف جديدة في التعبير مثل المونولوج الداخلي والاسترجاع (Flash Back) والتلاعب بالضمائر، وتوظيف الأساطير والرموز والأحلام إلى غير ذلك من التقنيات الروائية التي تسهم في إثراء النصوص الفنية.

ومن الطبيعي أن يطلع العرب غداة الحرب العالمية الثانية على الأدب الأمريكي مترجما مثلا أو في لغته الأصلية. ويبدو أن إقبالهم على قراءة هذا الأدب خصوصا الرواية والقصة هو نتيجة للاتجاهات الطبيعية والواقعية للكثير من الكتاب الأمريكيين خاصة ممن ظهروا وكتبوا بعد الحرب العالمية الأولى وما بين الحربين بشكل عام، فضلا عن التمرد الذي تميز به هذا الأدب واهتمامه بوصف الواقع الأمريكي وتوظيفه لتقنيات جذابة ومغرية. هذا الكلام يعني أن الترجمة ليست مجرد تعامل سطحي مع التراكيب والمفردات، وإنما هي توغل في المعاني واستقراء للرموز والصور. هي " عملية لغوية معقدة، فيها اللغة، وفي اللغة آثار البيئة والثقافة، وفي البيئة يتحكم الإنسان ويؤثر عليها وتؤثر عليه، والإنسان يتأثر بالثقافة سواء كانت أصيلة أو دخيلة، ولابد والحالة هذه أن تطبع الترجمة بطابع خاص ومميز، يختلف من هذه اللغة إلى تلك ومن هذه الثقافة إلى تلك "

فالمشكلة، إذن، أنه عندما يتم الانتقال من فضاء ثقافي إلى فضاء ثقافي آخر فإن عملية التأويل تصبح أشد تعقيدا، باعتبارها تعبر عن قراءة المترجم لنص كتب بلغة معينة عبر لغة أخرى لها خصوصيتها اللغوية وتاريخها الثقافي الخاص الذي يخلع عليها عبقرية شخصيتها.

فالترجمة الأدبية نوع " يعتبر وجها من وجوه التعامل الحضاري الذي يقوم على أساس الأخذ والعطاء. وتؤكد مختلف الدراسات التاريخية على أن كل حضارة آمنت بوجود الأخذ والعطاء شهدت مدا متطورا ونسقا حضاريا مزدهرا. وعلى هذا الأساس برزت ظاهرة الترجمة في تاريخ الحضارات منذ القدم وتطورت تبعا لتطور الإنسان المعرفي... فلقد ساعد التعرف على تجارب الآخرين على تطوير معارف الإنسان وفهمه لبعض أبعاد علاقته بمحيطه، وبذلك لم تكن الترجمة منذ القديم في مختلف مجالات المعرفة عنصرا مضافا إلى حضارة الجماعات على أساس الإثراء من الخارج، بل كانت عنصرا فعالا وحيويا يساعد من الداخل على بعث حركية عميقة في صلب الحضارة الواحدة.

الترجمة والأدب:

هناك من يقول إن الأدب فن لغوي، شكل جمالي خالص، نظام من الرموز والدلالات التي تولد في النص وتعيش فيه ولا صلة لها بما هو خارج عن هذا النص. وهناك من يرى أن الأدب تعبير بالكلمة عن موقف الأديب من العالم، أي أنه صياغة لغوية لتجربة إنسانية عميقة، استخدام خاص للغة لتحقيق هدف ما.

في الواقع هناك تعاريف عديدة للأدب، تعاريف متقاربة أحيانا ومختلفة أحيانا أخرى إلى حد التباين. ومن الواضح أن هذه التعاريف تعكس مدى الخلافات والصعوبات في تحديد المفهوم والطبيعة والوظيفة: فهل الأدب إلهام أم قوى داخلية مرتبطة بالإنسان مثل الانفعال؟ أم أنه نتاج للاشعور الفردي ومخزوناته من المكبوتات؟ أم أنه صدى للخرافات والحكايات والأساطير القديمة؟ أم أنه نتاج لعملية خلق حرة؟ أم نتاج لفعالية اجتماعية؟

ولئن اختلفت الشعوب والمذاهب والتيارات في تعريف هذا الأدب فإنها تتفق على الأقل أنه ينقسم إلى قسمين كبيرين: الشعر والنثر، وأنه كلام جميل مثير ينطوي على أحاسيس الإنسان وعواطفه وتخيلاته، أي أنه أحد مظاهر الفن المتعددة.

والجدير بالذكر أن الأدب منذ عصر بعيد راح في كثير من السياقات

الواقعية يواكب تطور الإنسان في إطار علاقته بذاته أو محيطه الذي لم يستطع أن ينفصل عنهما البتة. ومن ثمة عرف هذا المفهوم تطورا وتدرج تبعا لتحولات الإنسان المادية والمعنوية عبر العصور وواكب هذا التلون تطورا لمفهوم الأدبية من ناحية ووظيفة الأدب ومنزلة الأديب من جانب آخر.

والجدير بالذكر أيضا أن النقاد العرب الأقدمين قد قسموا مستوى الخطاب إلى قسمين اثنين: خطاب عاد نفعي ينتهي بانتهاء الحاجة بين مرسل ومستقبل، وخطاب أدبي لا يمكن أن ينفصل البتة عن الجانب الفني الإبداعي، لأن منبعه الوحيد ينشأ عن ملكة وهو يخاطب الوجدان ويسعى بكل الطرق إلى أن يمس إحساس المتلقي سامعا كان أم قارئا. ناهيك على أنه يمتاز عن غيره من الخطابات الأخرى بأن ألفاظه مختارة ومفرداته منتقاة ومعانيه مبتكرة تحتاج إلى إمعان الفكر وإعمال العقل من أجل فهمها واستيعابها.

ثمة علاقة وطيدة بين الترجمة والأدب. فلئن كان هذا الأدب نوعا من الخلق والإبداع، يؤثر، بوسائله المختلفة في متلق، فإن الترجمة نشاط معقد تصل بين أدبين وتقيم جسرا بين ثقافتين، وتسهم في توصيل بعض الروائع الفنية إلى قطاع من القراء ما كانت لتصل إليه بدونها " ففي هذا العالم تعددية لغوية وثقافية ضخمة وفي كل لغة من اللغات الكثيرة الموجودة في العالم ثروات أدبية وفكرية لمتكلمي اللغات الأخرى مصلحة في أن يطلعوا عليها ويستفيدوا منها وهذا يحتم ظهور نشاطات ترجمية بين اللغات المختلفة لأن الترجمة هي القناة الرئيسية للتواصل والتبادل الثقافي بين الشعوب... وقد لا نغالي إذا قلنا إنها مسألة مصيرية لكل ثقافة، وبالتالي لكل مجتمع.

الترجمة الأدبية من أهم موضوعات الترجمة، والمقصود بها هو إعادة صياغة نص أدبي في قوالب لغوية وثقافية جديدة، نقل المعاني بكل ظلالها والاهتمام بالجوانب الجمالية في النص من انسجام وتناسق بين الألفاظ، وتحديد دورها في نقل الدلالات...

والترجمة الأدبية التي تتبوأ مكانة مرموقة في تاريخ الشعوب عمل إبداعي خلاق يساهم بشكل أو آخر في إثراء الجانب الجمالي من الحياة. فهي تهدف أساسا إلى نقل الشحنة الانفعالية التي يتضمنها النص الأصلي مع المحافظة على الشكل الفني الذي يميز هذا النص، نقل المعنى وخصائص الأسلوب بدقة متناهية بحيث يفهم في اللغة الجديدة، ويحدث ما أمكن في لغة الهدف الأثر نفسه الذي أحدثه في لغة المصدر، مع مراعاة اختلاف خصائص اللغتين من حيث مدلولات الكلمات ومصطلحات اللغة وتراكيبها وبناء الجمل...

صحيح إن الترجمة الأدبية تساعد على سبر أغوار شوامخ الآثار الفنية وتلعب دورا أساسيا في ازدهار الآداب، ولكن هل هذا النوع من الترجمة ممكن؟ وهل نترجم النص الأدبي حرفيا أو بتصرف؟

في الحقيقة إن ترجمة النص الأدبي عملية صعبة، تتطلب كفاءة لغوية عالية ومعرفة دقيقة شاملة. فهذا النوع من الترجمة هو بمثابة نقل جهاز أدبي متشعب، له ملابساته الداخلية والخارجية التي نشأ وترعرع فيها، وبالتالي زرعه بكل خصائصه في جهاز أدبي مغاير...

ويبدو أن " الزارع " مهما حاول أن يكون وفيا للغة المصدر أو اللغة المترجم فإن جهده يبقى قاصرا في تحقيق مبتغاه (أي زرع هذا الجهاز) لأنه سيجد نفسه مضطرا، عاجلا أو آجلا للخروج من قيود النص الأصلي وحدوده. وهذا الخروج قد لا يؤثر بالضرورة على المحتوى أو الرسالة المتضمنة، بل ربما قد ينحصر تأثيره على الشكل أو الطريقة...

هذا الكلام يعني أن الترجمة الأدبية ممارسة معقدة وشائكة، يتمثل مسعاها في نقل نص من منظومة لغوية إلى أخرى تتأسس على تفاعلات ثقافية، جمالية وأسلوبية. أما المترجم للنص الأدبي فينبغي أن لا يعتمد فقط على تصريحات النص بل يذهب إلى ما وراءه وخلف ظلاله، إلى الخطاب الذي قيدته الكتابة، إلى الباطن والغامض والكشف عن المعاني والدلالات.

فمهمته لا تنحصر في نقل دلالة الألفاظ أو ما يسمى بالإحالة (أي إحالة القارئ إلى نفس الشيء الذي

قصده صاحب النص الأصلي) بل لابد أن تتجاوز ذلك إلى المغزى بل إلى التأثير الذي يفترض أن المؤلف قد اعتزم إحداثه في نفس المتلقى .

وفي الحقيقة، إن الأمانة في الترجمة الأدبية شرط أساسي لا يمكن الاستغناء عنه، شرط شغل الدارسين والمترجمين على مر العصور: فما المقصود بها؟ وهل هي مطلب يمكن تحقيقه أم أنها حلم لا يجتمع بغيره من الشروط؟ وبعبارة أخرى: إلى أي حد تكون الترجمة وفية وأمينة للنص الأصلي؟

إن مثل هذه الأسئلة جسدت إشكاليات أساسية للمشتغلين بنظرية الترجمة. ومن الملاحظ أن الأجوبة تتأرجح ما بين الاعتناء بالأشكال اللسانية للنص المصدر وبين التكيف الحر مع النص بين احترام المحتوى العام للنص الأصلي أي تمرير المعنى مع إنتاج نفس الأثر عند المتلقي والاعتناء بالترجمة الحرفية التزويقية. فهناك من يؤكد على ضرورة تحرر المترجم من النص الأصلي لأنه ليس عبدا له وعليه أن يجتنب كل حرفية بل يكفيه أن يستخلص زبدته بدون أن يمس خصائصه ومميزاته وثمة من يرى أن مهمة المترجم الأدبي لا تنحصر في نقل روح النص بأمانة وإنما تتعداه إلى الوفاء يشكل الأسلوب ونمط الكتابة. وهناك فريق آخر يشترط في الترجمة خفة الروح وحضور البال مع القدرة على السبك والحبك والتعبير الفصيح السليم، وكل ذلك من أجل إبداع نص يحدث نفس الأثر الذي تركه النص في وسطه الأصلي، أي نقل " اللذة الجمالية " للأثر الفني.

فالنص الأدبي الرفيع يستلهم أساسا جماليته من لغته الخاصة وتعداد صوره الأسلوبية والبلاغية والثقافية، التي تفتح أبواب التأويل في وجه القارئ. وهذا يعني أن ترجمة مثل هذه النصوص عملية معقدة فيها ما هو لغوي وفيها ما هو جمالي وفيها أيضا ما هو ثقافي. ولعل " أهم ما يواجهه المترجم ساعة القيام بعمله هو تساؤله عن الإمكانيات التي يوفرها له النص لكي يكون أمينا. فهو دائما أمام تصورين لا ثالث لهما: إما أن يقرب القارئ من النص الأصلي باحترام شكله الخارجي، وإما أن يكيف معانيه لتتوافق مع البنيات الثقافية للغة المترجم إليها. وبالطبع، فإن كلا من الاختيارين يحتم نوعا من التنازل. فالذي يدافع عن حرفية الترجمة في تتبعها لخطوات النص الأصلي يتنازل عن إيصاله في قالب يسهل القراءة. والذي يتوخى البحث عن ميكانيزمات كفيلة بتكييف النص داخل ثقافة الوصول يفقد في أغلب الأحيان تلك المكونات الأسلوبية لكل كاتب ".

لقد أثبت اللغويون (سوسير / مارتيني...) أن اللغة ليست قائمة من الكلمات وأنها لا تمثل متصورات ذهنية معطاة سلفا. فمعجم أية لغة (أي مفرداتها) ليس مجرد قائمة من الكلمات ينهل منها المتكلمون عند الحاجة، بل هو معجم مرتبط أيما ارتباط بالواقع المحيط بالمتكلم، وكل كلمة من كلماته قابلة للتطوير والتجاوز تبعا لتطور مسار الإنسان عبر العصور. الأمر الذي يعني أنه من الصعب للغاية أن تتطابق لغتان تطابقا كليا أو شبه كلي وأن معرفة الكلمات وحدها في الترجمة غير كافية بل لابد من معرفة الأشياء التي يتحدث عنها النص المستهدف وإدراك خلفياتها الحقيقية. وليس غريبا أن يعمد المترجم إلى التحوير أو التغيير في نظام جمله كأن يقدم كلمة ويؤخر أخرى، وكأن يربط بين جملتين أو يفصل بينهما، إذ أن كل لغة تصفف مفرداتها بكيفية معينة. وما المفردات سوى حلقات في عقد أو سلسلة، تتحكم قواعد معينة في ترتيبها ومنطقها .

ويبدو أن الترجمة تلعب دورا أساسيا في إثراء اللغات. فعبرها " تنفتح النصوص على بعضها ويجري حوار خفي يعكس تلك العلاقة الحميمية التي تربط بينها، وتبين كل لغة عن

ثرائها أو ينفضح فقرها... على هذا النحو يتيسر لهذه الترجمة أن ترعى هذا الحوار الشاق الذي يجبر كل " طرف لغوي" على الانسلاخ على الذات والامتثال لمعايير التجدر والانسياب والإبانة عن المقدرة، لأن قوة اللغة تكمن في كفاءتها التعبيرية ".

من الواضح، إذن، أن الترجمة لا تعتمد على نقل الألفاظ والتراكيب اللغوية فقط، بل على الأساليب

والوسائل الفنية الأخرى التي يلجا إليها الكتاب. ومن الواضح أيضا أن المترجم لا ينبغي أن يلتصق التصاقا كليا بالأصل "وينسخ نفس التراكيب بنفس المنطق الذي يحكمها في لغتها، ووفق نفس الإيقاع الذي ينظمها في نص الكاتب، بل يكفيه أن يلتزم الدقة والأمانة الخلاقة ويحترم الجو العام الذي يميز كل لغة عن سواها حتى توحي الترجمة على الأقل بمرجعيتها...." .

ولئن كانت الترجمة تتوسط بين عالمين مختلفين لتربط بينهما بشكل أو آخر فإنها تتحمل مسؤولية أخرى تتجاوز بنية النص اللغوي الذي يتجاذبها المنظرون اللسانيون، ونقصد بذلك البعد الثقافي للنص المستهدف، هذا النص الذي مهما اختلفت مضامينه فإنه يحمل شحنة ثقافية ومرجعية لابد من أخذها بعين الاعتبار وبأمانة أيضا ومهما كانت طبيعة التباعد بين اللغتين (جغرافية، لسانية، حضارية...) من هنا تأتي أهمية بعض العلوم التي ينبغي أن يعتمد عليها المترجم مثل علم الاجتماع وعلم النفس والأنتروبولوجيا في حل المشاكل التي يطرحها هذا البعد الثقافي وتجاوز عقباته.

ويرى العديد من الباحثين أن هذا الاختلاف بين الثقافات يسبب صعوبات كثيرة للترجمة، قد تفوق كثيرا الاختلافات في التراكيب اللغوية. ولهذا أصبح من الضروري معرفة الطرق التي يمكن من خلالها نقل الكلمات والعبارات ذات السمات الثقافية الخاصة. ومما لاشك فيه أن الترجمة تصبح أكثر صعوبة في اللغات التي تختلف في أصولها مثل العربية والإنجليزية، فاللغة العربية لغة سامية واللغة الإنجليزية لغة هيندو أوروبية وهذا يعني أن مترجما مثل مترجم رواية " الشيخ والبحر " إلى اللغة العربية قد واجهته مشاكل عدة، إن على المستوى اللغوي وإن على المستوى الثقافي. فهو يتعامل مع لغتين مختلفتين كل الاختلاف وثقافتين متباعدتين كل التباعد .

ولابد من الإشارة هنا إلى أن اللغة الواحدة تحتوي على مظاهر ثقافية متنوعة على مستوى المفردات والتراكيب والتعابير. وكلما تميزت اللغة بدقتها وتحديدها كلما تميزت المظاهر الثقافية فيها بصورة أوضح وأصبحت الترجمة أكثر دقة وصعوبة. فثمة مفردات مثل كرسي، طاولة، قمر، تفهم بسهولة عند نقلها من لغة وثمة كلمات أخرى مثل إمام، مفتي، الشيخ... يصعب نقلها إذ أنها خاصة بالثقافة العربية ولا يمكن أن نجد مقابلا مشابها لها في اللغة المنقول إليها.

ولعل الهدف الذي ينبغي أن يسعى إليه كل مترجم عند نقل الألفاظ يتمثل في تحديد معناها كما يرد في السياق الثقافي لكي يسمح للقارئ الذي لا يعرف ثقافة اللغة الأصلية فهم معنى الكلمة الأصلية أي لابد عليه أن يتجاوز السياق اللغوي إلى السياق الثقافي. فمن الضروري، إذن، أن يمتلك ثقافة عامة واسعة، أي أن يكون ملما إلماما شاملا بحضارة البلد الذي يترجم نصوصه.

من الواضح، إذن، أن هناك حواجز ثقافية تنتصب بين الشعوب، حتى بين تلك التي تنتمي إلى دائرة حضارية واحدة كشعوب القارة الأوروبية. ومن الطبيعي أن تكون تلك الحواجز أكبر وأضخم عندما يتعلق الأمر بأمتين تنتميان إلى دائريتين حضاريتين مختلفتين جغرافيتين بعيدتين عن بعضهما البعض. ومن الممكن أن تعلو تلك الحواجز وترتفع عندما يتوافر عامل ثالث وهو اختلاف درجتي التطور الاقتصادي والاجتماعي. ومما لا شك فيه أن هذه الاعتبارات الثلاثة متوافرة جميعا في حالة أمتين مثل الأمة العربية والأمة البريطانية، إذ تفصل بينهما مسافات ومساحات شاسعة، فضلا عن أن المجتمع البريطاني مجتمع صناعي متطور من النمط الرأسمالي الحديث، أما المجتمع العربي فهو مجتمع متأخر نسبيا غير صناعي.

إن البعد الثقافي يلعب دورا أساسيا لا يمكن إغفاله في عملية الترجمة. ولقد ناقش العديد من النقاد وعلى رأسهم يوجين نيدا – أساليب ترجمة الكلمات والتعابير الثقافية وذلك من خلال تقسيمها إلى المجموعات التالية:

- كلمات ترتبط بالثقافة البيئية وتشمل: حياة النبات والحيوان والسهول والهضاب.
- كلمات ترتبط بالثقافة المادية

وتشتمل: الطعام والشراب والألبسة والمنازل ووسائل النقل.

- كلمات ترتبط بالثقافة الاجتماعية هي متنوعة وعديدة منها ما يختص بالعمل وأوقات الفراغ والمناسبات المختلفة.
- كلمات ترتبط بالثقافة الإيديولوجية وتشتمل المؤسسات والمفاهيم السياسية .

هذه المجموعات (المستويات) المشار إليها تتطلب من المترجم أن يكون ملما إلماما كاملا بالأوجه الثقافية للنصوص التي يترجمها فضلا عن المميزات اللغوية والثقافية للغة التي يترجم إليها. فالترجمة ليست نقلا للمعنى فقط وإنما نقل للسياق الذي يقصر الكلمة على معنى واحد من معانيها الكثيرة، وتحديد ظلال المعاني الخاصة بها في الثقافة المنقول منها. فثمة العديد من المفردات والمصطلحات الخاصة بعالم البحار الذي تفنن في وصفه الغربيون غير موجودة في اللغة العربية. وهناك العديد من أسماء النباتات والحيوانات المألوفة في الوطن العربي ليس لها مرادفات في اللغات الأوروبية (مثل الإنجليزية).

والواقع إن ترجمة نص أدبي لا تعني مجرد الخوض في عملية لسانية بل هي أيضا البحث عن معادلات ثقافية قادرة على أداء المعنى. ويعتبر الباحث يوجين نيدا " السياق الثقافي ذا أهمية قصوى في فهم معنى أية رسالة، لأن الكلمات لا تملك معاني لها، إلا إذا وردت في إطار ثقافي كلي... لذلك فعند تحديد تفسير رسالة يجب أن ننتبه إلى السياق الثقافي الأوسع لغرض الحصول على مفاتيح مهمة لتفسير معنى السياق.

لقد سبقت الإشارة إلى أن المترجم - بوصفه قارئا للنص الأدبي ومتلقيا لأدبيته - يقف حائرا أمام الاستراتيجية التي ينبغي أن يتبناها: أي بعد في الترجمة يجب أن يوليه الأولوية: هل البعد الثقافي أم البعد الجمالي الذي يتميز به النص ويجعل منه كائنا مستقلا بذاته؟

يبدو أن الترجمة الجيدة هي التي لا تحقق تناظرا في المضمون (أو المحتوى) فحسب وإنما تحققه أيضا على الصعيد الأسلوبي والجمالي. وهذا ما حمل بعض منظري الترجمة إلى التمييز بين نصوص بارزة المضمون وأخرى بارزة الشكل.بينما تجاوز آخرون هذا التقسيم إلى البحث عن نصوص مترجمة يعادل تأثيرها في نفس المتلقي الذي يستقبلها في لغة الهدف ذلك التأثير الذي أحدثه النص في نفس المتلقي الأصلي.

لقد أثبتت التجربة أن المعرفة وحدها غير كافية من أجل ترجمة النصوص الأدبية، بل لابد من توافر الذوق الأدبي والموهبة الصادقة، باعتبار أن الأدب نوع من أنواع الإبداع المتصل بالخيال والعاطفة والمواقف الشاعرية التي تعتمد على التلميح والشحن والدلالات الموالية. وهذا يعني أن المترجم يجب أن يكون قادرا على التعبير بأسلوب أدبي واحترام النص الأصلي إلى أبعد حد ممكن مثل الموضوع والشخصيات والخلفية الزمانية والمكانية. فالنص الأدبي ظاهرة جمالية قائمة بذاتها وعمل إبداعي متكامل وينبغي عند ترجمته اختيار ألفاظ مناسبة والاعتناء بجمال العبارة وبعبارة أخرى أن يكون هذا المترجم قادرا على إبداع نص أدبي يترك لدى القارئ أثرا فنيا معادلا لأثر النص الأصلي.

لقد أشرنا عدة مرات إلى أن الترجمة الأدبية هي عملية لغوية وثقافية وجمالية يجد المترجم نفسه فيها يتأرجح بين النقل والإبداع. فهي لا تقتصر على نقل المعنى أو الأسلوب فحسب بل تتعدى ذلك إلى الناحية الجمالية الفنية فترجمة رواية من لغة إلى أخرى ليس بالمهمة السهلة لأنها جنس " تستخدم فيه الأساليب الأدبية المختلفة التي يتوجب على المترجم أن يوجد ما يعادلها أو يقترب منها في لغة الهدف. ففي [مثل هذا الجنس] ترد كثير من التشابيه والاستعارات والكنايات والرموز وأنواع المجاز المختلفة التي يجب على المترجم أن يعرف كيف يتعامل معها بصورة مناسبة، كذلكم فإن الحوار الروائي يطرح مشكلات ترجمية خاصة... وفي مطلق الأحوال لا يجوز أن يلجأ المترجم إلى نقل النص الروائي بلغة تتناقض مع سمات لغة النص متقعرة عويصة أو قديمة في ترجمة نص روائي لا تتصف لغته بهذه الصفة مهما تكن المسوغات " .

وفي الحقيقة إن ترجمة النص الروائي تبقى، في نهاية المطاف

قراءة فنية متأنية من جملة قراءات ممكنة. والمترجم يقرأ هذا النص قراءات ويحاول أن يعيد صياغته في قوالب لغوية جديدة، بصبر وتأن. فهو مطالب " بتقليب النص بحذر شديد بحثا عن كل التأويلات الممكنة، لأن اللغة الواحدة قد تختزن لغات كثيرة، وكل لغة تحتوي مالا يحصى من الأساليب ثم يمعن التنقيب عن غابر النص وعن عصبه المحوري، ليضبط الحدود الفاصلة بين مستوياته التعبيرية، ويقف على طبيعة مراجعه الثقافية والأسلوبية، ويرأب الصدوع النحوية والنسيقية التي تنبثق في سياق الترجمة، ويزيح كل العوائق التي تعترض سبيله نحو تحقيق التقارب ومقاومة الاختلاف...

هذا التعامل المحترس تستوجبه طبائع كثيرة، منها طبيعة النص اللغوية والإبداعية، وطبيعة العلاقة التي تنشأ بينه وبين المترجم، وطبيعة اللغة التي سيعالجه بها وطبيعة المناخ العام الذي سيحتضنه، وكلها عوامل متشابكة لا محيد عنها لأية ترجمة تتوخى الإبقاء على الجوهر وصقل الشكل.

اقتراح مشروع لمنهج ترجمة نص ادبي من اللغة العربية واليها

أ) قراءة النص الأصلي:

تبدأ عملية الترجمة باستيعاب الفكرة الموجودة في النص، فيبدأ المترجم بقراءة النص الذي يريد ترجمته بإمعان، وفهم الفكرة التي يهدف إليها الكاتب، وتحديد أسلوبه وطريقته

في التعبير، وطبيعة الجمل والكلمات المستعلمة فيه. وقد يحتاج المترجم لفهم النص إلى الاستعانة بالمعاجم اللغوية المختلفة، الأحادية اللغة والثنائية العامة منها والمتخصصة، إضافة إلى الاستعانة بالمراجع العامة والموسوعات التي تساعده على فهم الموضوع أو الفكرة التي يريد ترجمتها. ولكنه ينبغي أن يدرك أن المعنى الحقيقي للكلمة لا يكمن في المعجم وإنما ينتج من خلال السياق الذي تقع فيه المفردات، وبالتالي فإن المعنى المعجمي للكلمة قد يختلف عن معنى الكلمة في السياق وينبغي أيضا أن يتمكن من فهم وتفسير مظاهر النص اللغوية والدلالية بالشكل الصحيح أي: أن يكون قادرا على التعرف على طبيعة النص وطريقة بنائه وتركيبه وتقسيمه إلى وحدات مترابطة، إضافة إلى قدرته على فهم الإيحاءات والدلالات والرموز والمظاهر الأسلوبية المختلفة: فكلما كان النص أكثر ثراء من الناحية الأدبية، كلما ازدادت الحاجة إلى دراسته بصورة أكثر دقة وتفصيلا، واستيعاب مظاهره اللغوية والأسلوبية.

وخلاصة القول إن هذه المرحلة الأولى تتطلب مقاربة استنباطية للنص المستهدف إذ يجب استحضار العالم السيكو – عقلي للكاتب عند تجربته لفعل الكتابة أو إحساسه ووعيه بما يرويه ومن جهة أخرى الإحاطة بعالم النص السوسيو ثقافي أي المعطيات الثقافية والاجتماعية التي ساهمت في فرزه.

ب) تحقيق النص:

بعد مرحلة القراءة والفهم، يحتاج المترجم إلى تحديد الجوانب التي تتطابق بحثا وتحقيقا حتى يتمكن في الشروع في عملية الترجمة. ويجب أن يعلم أنه لا يترجم الكلمات أو التراكيب التي يتكون منها النص وإنما المعنى الموجود فيها والذي ينتج من خلال السياق الذي ترد فيه الكلمات. ويجب أيضا أن يتمكن من حل الإشكاليات الخاصة بالكلمات الثقافية والأمثال والحكم. ولعل هذه المرحلة (البحث والتحقيق) تمكنه من تحديد المشاكل المختلفة ومعالجتها على انفراد قبل الشروع في عملية الترجمة فهو مطالب بالإحاطة بكافة جوانب الموضوع الذي بين يديه، سواء منها ما يتناوله النص بصريح العبارة، أو ما يتعين البحث عنه " بين ثنايا السطور " واستخلاصه من رصيده المعرفي والثقافي. ويقترح الباحث عبد الله عميد الاختيارات التالية التي يتعين على المترجم أن يبث فيها قبل قيامه بعملية الترجمة:

- تحديد موقفه من النص الأصلي ومؤلفه ومصدره
- موقفه من القراء المستهدفين بالنص المترجم.
- كيفية تأويل بعض مقاصد النص غير المعلنة صراحة وأسلوب نقل هذه المقاصد.
- الزمان والمكان: نص قديم أم حديث؟

كتب في زمن الحرب أم السلم؟ داخل البلد أم خارجه؟

طبيعة النص يتناول أمورا حسية ملموسة أم قضايا تجريبية، سردي، وصفي، أم أنه يشمل على شيء من هذا وذلك؟

تركيب النص: جمل طويلة أم قصيرة، مدى الترابط بين فقراته وفصوله.

المستوى اللفظي: ألفاظ غير مألوفة، شائعة، مهجورة، شاعرية.

مستوى الأسلوب: ساخر، ملئ بالمجاز والمحسنات البديعية، واقعي، رومانسي...

إن المترجم الذي يتصدى لترجمة المؤلفات الأدبية لابد أن يولي الجوانب الفنية والجمالية المزيد من العناية، بل ويضعها في المقام الأول أحيانا... فهو يسعى إلى إعادة إبداع النص الأصلي بفضل موهبته في الكتابة أصلا وبما يملكه من وسائل التعبير في لغة النقل مراعيا في ذلك أذواق قرائه...

ج) الترجمة الأولية:

وهي المرحلة التي تلي مرحلة فهم النص في لغته الأصلية فهما صحيحا كاملة. وفيها يشرع المترجم في نقل المعنى إلى لغة الهدف بأسلوب السياق الذي ورد فيه وبلغة سهلة وواضحة. وقد تواجهه صعوبات في اختيار المفردات المناسبة للتعبير عن المعنى المطلوب بأسلوب يشبه أسلوب النص الأصلي أو في اختيار التراكيب المناسبة ومدى وضوحها وانسجامها في اللغة الهدف وهذا لابد أن يبدي مرونة من أجل البحث عن المعنى الذي يتناسب مع النص، موزعا اهتمامه بين مضمون النص وأسلوبه.

وينبغي أن يكون المترجم دقيقا في عمله أن يطلع على النص بأكمله، ثم يختار الفقرة الأولى ثم يبدأ بترجمة الجملة الأولى ويبدو أن إعادة النظر في تحرير الفقرات أمر ضروري لا مفر منه، ذلك أن وجود العبارات أو الكلمات التي تتميز بطابع ثقافي أو مجازي في النص قد يؤدي إلى صياغة النص بطريقة خاطئة. ولا بأس أن تسبك العبارات بأسلوب مشابه قدر الإمكان لأسلوب النص الأصلي حتى تظهر القطعة المترجمة بنفس روح القطعة الأصلية.

ح) مرحلة المراجعة:

تمكن المترجم من اكتشاف الأخطاء التي يكون قد ارتكبها بغير انتباه وهي تساعده على خلق الانسجام والترابط بين وحدات النص لكي تصبح أكثر دقة وأمانة، وأكثر سهولة في القراءة دون أن يفقد النص معناه.

ومن المفضل أن يقوم مترجم آخر بمراجعة النص، وخاصة من الذين لهم خبرة في الميدان. ويبدو أن هذه الوسيلة (الاستعانة بمترجم آخر) هي أفضل الوسائل لاكتشاف الأخطاء في النص المترجم. وإذا لم يتمكن المترجم من العثور على شخص آخر لمراجعة عمله، لا بأس أن يترك النص فترة من الزمن ثم يعود إلى قراءته بروح جدية من أجل اكتشاف مفاصل الخلل وجوانب الضعف الموجودة فيه.

ولابد من الإشارة، هنا، إلى أن المترجم الأدبي مطالب بالفهم والأمانة والأصالة. فهو قارئ أولا ومبدع ثانيا ينبغي عليه احتواء النص المصدر بإعادة خلقه وترميزه فالمسألة، بالنسبة إليه ليست اكتشاف معاني يجهلها بل اكتشاف وسيلة للتعبير عن هذه المعاني في لغته الأم. فهو يستقبل المادة اللسانية ثم يحولها إلى مادة لسانية أخرى بمراعاة قيمتها الإنسانية والجمالية، أي أنه مطالب بإعادة كتابة النص الأصلي في صياغة جديدة بدون أي تشويه أو تحريف.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن عملية الترجمة عملية مركبة تتداخل فيها مجموعة من الفعاليات المترابطة التي يصعب التفريق بينها فالمترجم مطالب في مرحلة المراجعة بان يأخذ بعين الاعتبار طبيعة اللغة التي ينقل عنها من حيث قواعدها ونظامها، وطبيعة الأشياء والأحداث التي يشير إليها النص، ثم يتأكد بدقة من تسلسل الأفكار وترابطها موليا اهتماما بمشاعر الكاتب وأحاسيسه ومدى قدرتها على الظهور بأسلوبها المميز.

هـ) تنقيح النص وتدقيقه:

لقد أشرنا، عدة مرات، إلى أن المترجم، من أجل القيام بترجمة جيدة، لا يكفيه أن يفهم النص فحسب. وإنما أن يكون أيضا قادرا على إبداع نص جديد ينقل المعنى

بأسلوب يشبه أسلوب النص المترجم فضلا عن ذلك يجب عليه أن يحترس من فهم مداولات بعض الكلمات أو المصطلحات أو المفاهيم بصورة غير صحيحة، تختلف عن المعنى المقصود أو أن يعدل العبارات بطريقة تشوه النص. فعند الترجمة مثلا من الإنجليزية إلى العربية،

لابد من الانتباه إلى أن اللغتين تختلفان من حيث التركيب والبناء وأن الاكتفاء بنقل نفس التراكيب قد يؤدي إلى الركاكة. فلكل لغة من هاتين اللغتين أنماط من التراكيب خاصة بها.

من الضروري، إذن، أن يتحرر المترجم من سيطرة النص الذي يترجمه بل أن يحاول خلق نص جديد يحمل نفس المعنى والأسلوب، وإن كان يختلف من حيث البناء والتركيب وترتيب الكلمات عن النص الأصلي. فمن المعروف أن التطابق الشكلي يتحقق عندما تتوفر في لغة الأصل ولغة النقل تشكيلات متعادلة ومرتبطة على نفس الصورة، أما عندما تختلف اللغتان في المبنى والأداء، ولا تتوفر في لغة النقل العناصر البلاغية واللغوية المماثلة (مثلما هو الحال في العربية والإنجليزية) فلابد أن يعمد المترجم إلى وسائل مختلفة للتعويض (إحلال أساليب بأساليب أخرى).

لهذه الأسباب، تعد مرحلة هامة من مراحل الترجمة. وقد تحتاج إلى وقت طويل من أجل استيعاب النص، جميع جوانبه وملء القضايا التي أهملها المترجم في المراحل السابقة.

ويفضل أن يراجع النص قبل طبعه شكلا ومضمونا وملاحظة مدى انسجام العبارات والتراكيب والألفاظ مع بعضها. وقد لا نبالغ إذا قلنا إنه من واجب المترجم أن يقيم صداقة حميمة بينه وبين صاحب النص بل أن يتقمص شخصيته، بمعنى أن يعيش مع النص الأدبي بعقله ووجدانه وروحه حتى يتمكن من نقل أحاسيس صاحبه وشعوره وما يقصده بدقة وأمانة.

المراجع و المصادر

- جون كونهوغن، من مشكلات الترجمة، في كتاب "ملامح في الأدب والثقافة.
- عبده عبود، هجرة النصوص، مشكلات وآفاق، دمشق، اتحاد الكتاب العرب.
- محمد يوسف نجم، القصة في الأدب العربي الحديث، بيروت، دار الثقافة.
- حمد عناني، الترجمة الأدبية، القاهرة، الشركة المصرية العالمية.
- عزيز الحكيم، ترجمة النص الأدبي من المساكنة إلى الانفلات،مجلة " ترجمان " ع ٨.
- زهير الوسيني، الترجمة الأدبية، تصورات أولية مجلة " الترجمان " ع٢.
- عبد الله حميد، المنهجية الازدواجية في الترجمة، مجلة " ترجمان " ع٢.
- محمد الديدواي، الترجمة والتواصل، الدار البيضاء المركز الثقافي العربي.
- خليل نصر الدين، الفعل الترجمي بين الممارسة اللسانية والتلقي،مجلة" المترجم" ع١.
- يوجين نيدا " نحو علم الترجمة "، ترجمة ماجد النجاربغداد، وزارة الإعلام.